كتاب فى الدين الاسلامى

للأستاذ محمد بهجة البيطار

قرأت فى الرسالة الغراء مقال نابغة الشام الأستاذ على الطنطاوى فى الإسلام وفهم الأصحاب والأعراب له من النبى صلى الله عليه وسلم فى مجالس معدودة ، وصدورهم عنه معلمين ودعاة إلى الله أيام كانت أوعية العلم الصدور لا الكتب ؛ ثم وصف ما يلاقيه فى عصرنا طلاب العلوم والفنون من عَنَت فى معرفة هذا الدين السمح بعد أن صرنا نملك ألوف الألوف من كتبه ، واقترح أن يؤلف كتاب فى الإسلام — عقائده وعباداته وأخلاقه — يشرح فيه حديث جبريل عليه السلام الذى سأل فيه النبى (ص) عن الإيمان والإسلام والإحسان بأسلوب شائق مؤثر « لا هو بالأسلوب العلمى الجامد ، ولا هو بالأسلوب القصصى الخيالى » كما قال . ودعا الكتاب إلى البحث فى هذا الموضوع الجليل ، واقترح علىّ حفظه الله أن أكتب فى مبحث الإيمان بالله تعالى على الأساس الإسلامى لا المذهب الكلامى (المشحون بالألفاظ المبتدعة كالجوهر والجسم والأعراض والأغراض والأبعاض والحدود والجهات وحلول الحوادث وغيرها) لينشر على صفحات الرسالة الغراء ، فلبيت شاكراً للأستاذ الطنطاوى غيرته ، ممهداً بوصف كتب العقائد المتداولة بين الأيدى

كتب العقائد المتداولة

لا يخفى أن الإيمان بالله تعالى هو توحيده على الوجه الذى أثبته لنفسه فى كتابه ، أو ورد عن المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى فى بيانه . وإذا نظرنا إلى كتب التوحيد الدراسية التى تداولتها أيدى الخواص والعوام فى معظم الأمصار الإسلامية ، وصارت عُمدة المدرسين والدارسين فى المدارس الحكومية الرسمية وفى المدارس الأهلية والمعاهد الدينية أيضاً نجدها نوعين :

١ — كتب العقائد التى وضعت على طريقة الخلف ، وأولت فيها نصوص الكتاب والسنة تأويلاً صرفها عن مدلولاتها اللغوية والشرعية ، ونَفَى معانيها الوجودية الثابتة ، بتأويلات جاءت على خلاف الوضع والشرع

٢ — كتب الدفاع عن الإسلام وتوحيده ، وإثبات أنه دين العقل والفطرة ، وحاجة البشر فى كل زمان ومكان ، وقد انتشرت فى زماننا شُبَه وشكوك فى دين الحق لأقوام وأصناف ، كبعثات التبشير أو التنفير ، ومروّجى الإلحاد والفساد ، وكتب التحريف والتخريف ؛ وفى ردود دعاة الإسلام وحماة الفضيلة دفع لباطلهم ، وكبح لجماحهم ، ولكن هذه الكتب التى تضمنت فلسفة التوحيد وحكمة التشريع ، هى سلاح علمى تشهره فى وجوه أعدائنا ، لحراسة عقائدنا ، والدعوة إليها ، والنضال عنها ، لا لتلقى علم التوحيد وعقائده منها ، فهى على نفاستها وضرورة دراستها وكونها لا يستغنى عنها فى مثل هذا الزمن ، ليست كتباً موضوعة فى علم التوحيد ، ولا هى قواعد لعقائده المستمدة من نصوصه المبنية عليها ، بل هى فلسفة تحوم حول التوحيد ، وإيضاح لمحاسن الدين ومزاياه

وهنا لك نوع ثالث وهو الكتب التوحيدية السلفية التى أثبتت معانى النصوص وحقائقها الشرعية من طريق المنقول والمعقول ، وردّت كلام المعطّلة والمؤوّلة ردّاً لم يبق حاجة فى النفوس

وقد كان حوار سلفنا الصالح مفحما للفرق التى ظهرت فى عصورهم ، وشاعت مقالاتهم فى الناس كالقدرية والخوارج ، والجبرية والجهمية ، والمرجئة والوعيدية . وكتبُ عَلَم السُّنة الإمام أحمد بن حنبل ، والإمام عثمان بن سعيد الدارمى وغيرهما من أئمة السلف أجلُّ ما صنف فى العقائد الصحيحة ، وأنفعها فى النقض على هذه الفرق المنحرفة . وقد جدّد عهدهم ، وشرح مذهبهم ، وبيّن أنه الأسلم والأعلم والأحكم شيخا الإسلام ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية فى كتبهما ، ثم من جاء بعدهما من أئمة الإسلام وأنصار العقيدة السلفية . ولكن كتب هؤلاء الأعلام الواسعة هى علمية تعليمية ، لأنها فى الغالب كتب حجاج ومناظرة ، وتأييد لمدلولات النصوص ، وردّ لشبهات الخصوم . فأنا أؤيد رأى أخى الطنطاوى فيما كتب ، وأقترح على حماة العقائد الصحيحة التى جاء بها القرآن أن يفتتحوا باباً للتوحيد السلفى ، وأن ينشروا فصولاً ملخصة مما كتبه الأئمة الثقات فيه ، تكون تمهيداً لوضع سلسلة توحيدية تعليمية ، مفرغة حلقاتها بأسلوب عصرى مدرسى ، تشرب القلوب حب السلف الصالح وآثارهم ، وتطبع النفوس بطابع عقائدهم وأخلاقهم ، وتغذى عقول النشء الإسلامى بلبان التوحيد الخالص المطهر من كل ما يخالطه من أدران البدع والزوائد ، فتصح العقائد ، وتزكو الأخلاق ، وتتوحد المبادئ

والغايات، فنضع هذا الاقتراح أمام أولى الكفاية والعزم من إخواننا السلفيين، لعله يجد مكاناً للاستحسان والتنفيذ إن شاء الله تعالى.

تعريف التوحيد

التوحيد فى اللغة التفريد. تقول: وحدت الشيء وأحدته إذا فصلته عما سواه، وأفردته. وفى الشرع: اعتقاد أن الله واحد أحد، فرد صمد، لا ندّ له ولا ضد. والتوحيد أساس العلوم الدينية، وهو الذى نزلت به الكتب، وأرسلت به الرسل، وتوارثه المجددون فى كل عصر، وقاموا عليه خير قيام. وهو الذى يجب أن يكون رأس الدعوة، ويجاهد فى سبيله كل من عاداه، حتى يكون الدين كله لله، وتترك العبادة لما سواه من حجر وشجر وبشر، وشمس وقمر، وملك وجن، وسائر ما عبد من دون الله فى الملأ الأعلى أو الملأ الأدنى، وهذا هو مناط النجاة فى الآخرة، وليست الدنيا إلا دار سباق لها

أنواع التوحيد

التوحيد ثلاثة أنواع (١) توحيد الربوبية (٢) توحيد الألوهية (٣) توحيد الأسماء والصفات. (فالأول): الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور. (والثانى) هو إفراده تعالى بجميع أنواع العبادة، والتوجه إليه وحده بالدعاء والطلب. (والثالث) هو أن يوصف الله سبحانه بما وصف به نفسه فى كتابه، وبما وصفه به رسوله من الأسماء الحسنى، والصفات العليا. فمن الأسماء: الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، ومن الصفات: الرحمن على العرش استوى، بل يداه مبسوطتان، وكلم الله موسى تكليماً.

وقد دلّ القرآن وشهد التاريخ أن العرب قبل الإسلام كانوا مؤمنين بوجود الله، مقرين له بالوحدانية فى الخلق والرزق، والتدبير والتأثير، والإحياء والإماتة، وتصريف جميع الأمور، وأن ليس لآلهتهم شيء من ذلك. والنصوص فى ذلك كثيرة وصريحة، قال تعالى: «ولئن سألتهم مَن خلق السموات والأرض ليقولن الله» وقال: «قل مَن يرزقكم من السماء والأرض، أمّن يملك السمع والأبصار، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى، ومن يدبر الأمر؟ فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون؟» وقال: «قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله: قل فأنى تسحرون» وهذا هو المسمى بتوحيد الربوبية الذى كان عليه أهل الجاهلية، وهو توحيد الرب بأفعاله.

إنما كان شرك المشركين الأولين بتوحيد الألوهية أو توحيد العبادة، ومن مظاهره الدعاء والخوف والرجاء، والذبح والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التى كان يصرفها المشركون لمعبوداتهم من الصالحين وغيرهم لتقربهم إلى الله زلفى، وكانوا يقولون فى حجهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك» فهذا الشريك هو الذى كان يشرك مع الله فى العبادة فحسب، لا فى الإيجاد ولا فى الإمداد كما قال تعالى: «ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله»

كلمة التوحيد

أساس الدين وركنه الأعظم هو كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله) فهى أصل الأصول، ودين الرسل من أولهم إلى آخرهم عليهم الصلاة والسلام «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون». فكلمة التوحيد هذه لا بد من فهم معناها والعمل بمقتضاها، وهو ما بعث به النبى (ص) ودعا إليه: أَلَه إلاهة وألوهة وألوهية: عَبَدَ عبادة، ومنه لفظ الجلالة وكل ما اتخذ معبوداً إله عند متخذه كما فى القاموس، فمعنى إله فى لغة العرب وفى الشرع هو المعبود بحق أو بغير حق. ولفظ الجلالة عَلَم على المعبود بحق وهو الله عز وجل فكلمة (لا إله) نفىٌ لكل معبود فى الوجود وإبطال لعبادته، وكلمة (إلا الله) إثبات لعبادة المعبود بحق وحده، «ذلك بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وأن الله هو العلى الكبير» فكلمة التوحيد مسقطة لجميع آلهتهم، هادمة لأنواع عبادتهم، مثبتة العبادة كلها لله وحده الذى وحدوه بربوبيته ولم يوحدوه بالإلهيته، فأقام عليهم الحجة بما أقروه على ما أنكروه، وبين أن من تفرد بالإيجاد والإمداد يجب أن يفرد بالعبادة، وهذه الحجة القاهرة من حجج الله على العالمين إلى يوم الدين

لما كان العرب فى جاهليتهم يفهمون من كلمة (لا إله إلا الله) هذا المعنى الذى بيناه لغة وشرعاً كانوا يستكبرون عن النطق بها لأنهم علموا أن الإذعان لها كفر بالآلهة وإبطال لعبادتهم، كما قال تعالى: «إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون، ويقولون أإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون» وقال: «وإذا ذكر

الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » وقال : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السموات ؟ ائتوني بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » وقال : « ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلي الكبير »

أما دعاة غير الله فقد سهل عليهم الأمر لأنهم فهموا من كلمة التوحيد ما يخالف الوضع والشرع وفسروها بمعنى توحيد الله بأفعاله ، وبالقدرة على الإبداع والاختراع ، وأخرجوا كل ما ذكرناه عن معناه اللغوي والشرعي ، كالدعاء والخوف والرجاء ، والحب والتعظيم ، والاستعانة والاستغاثة والاستعاذة ، والتوكل والذبح والنذر ، والخضوع والخشوع والالتجاء ، وغير ذلك من أنواع العبادة ، وأجازوا فعله كله لغير الله ، بعد أن نحلوه لقب التوسل والاستشفاع

التوسل الجاهلي

ليس الكلام في التوسل الخلاف المشهور بين العلماء المحصور في دعاء الله وحده مع التوسل إليه بصالحي عباده ، وإنما الكلام في توسل آخر لا يعرفه إلا الغلاة والجهال ، وهو دعاء أهل القبور أنفسهم ، والاستنجاد بهم ، وطلب الغوث منهم لإنقاذ الغرقى وشفاء المرضى ، ورد الغائبين وإغاثة الملهوفين ، وإعانة المستعينين ؛ وهذا لا يسمى توسلاً بهم لا دينا ولا عقلاً ولا لغة ، بل هو دعاء لهم وطلب منهم وهو خارج عن موضوع التوسل وليس منه في شيء

فإن قلت إن الداعي لغير الله لم يرد بدعائه إلا الله ، متوسلاً إليه بمن يدعوه ، وإن قلبه منطو على عقيدة صحيحة لو كشف الغطاء لشهدت صحتها ، وهلا شققت عن قلبه ؟ (فالجواب) أن ما في القلب لا يعلمه إلا علام الغيوب ، وأن الكلام منحصر في دائرة الأقوال والأفعال التي تناقض صحة العقيدة القلبية كل المناقضة ، والشارع ناط الأحكام بالظاهر ، والله يتولى السرائر . ولا يرد حديث : (هلا شققت عن قلبه) إلا على من يدعي معرفة الباطن ، وأنه موافق أو مخالف للظاهر ، وإنما البحث فيما يبدو للحس من قول أو عمل مصادم للشرع . وقد أنكر النبي (ص) على أسامة قتل من أتى بكلمة التوحيد ولم ينقضها بقول ولا عمل ، فادعى أسامة (رضي الله عنه) أنه لم يأت بها عن عقيدة قلبية ، فأنكر ذلك عليه صلوات الله عليه وقال : هلا شققت عن قلبه ؟ وأين هذا من ذاك !

وصف القرآن أهل الجاهلية وفرعون الذي ادعى الربوبية والألوهية بأنهم كانوا إذا وقعوا في شدة كخوف الغرق في البحر مثلاً دَعَوُا الله مخلصين له الدين ، كما قال فيهم : « فإذا ركبوا في الفلك دَعَوُا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » وقال في فرعون : « حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين » أفيكون أولئك القوم وفرعون أولى بدعاء الله وحده في الشدائد ممن يتبجحون بالإسلام والتوحيد ؟ وبدهي من عقيدة المسلمين أن جميع المخلوقات لا يملكون لأنفسهم — ولا لغيرهم بالأولى — في الرخاء ولا في الشدة ضراً ولا نفعا ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا » فكيف تتفق هذه العقيدة المستندة إلى النصوص القطعية المجمع عليها مع دعاء غير الله تعالى في الرخاء وفي الشدة أيضاً؟

وإذا أضيف إلى ما سبق دعوى التصرف في الكون التي يدعيها العوام وأشباه العوام لبعض الصالحين ، أو تقسيم الدنيا إلى أربع مناطق ، وتخصيص كل قسم منها بواحد منهم ، ودعوى وجود الله تعالى بذاته — تقدست وعلت — في كل مكان ، أو دعوى أنه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه ، وما يضاف إليها من سلبه تعالى صفات كماله ، ونعوت جلاله ؛ فقد وقع الإشكال العظيم في التوحيد بأقسامه الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات . ونعوذ بالله من سوء الفهم والخذلان. الحق يقال : إن هذه العقائد قد عظم ضررها ، وقبح أثرها ، وكان من نتائجها خروج جماهير المتعلمين على الطريقة الفنية عن دائرة دينهم ، وافتتانهم بما عند غيرهم . فما هو العلاج الشافي من هذه الأدواء الفتاكة يا ترى ؟ وكيف يعود الناس إلى عقيدة الإيمان بالله على الوجه الصحيح الذي جاء به الإسلام وجرى عليه أهل الصدر الأول علماً وعملاً واعتقاداً ؟

خاتمة

إني والذي جعل العلماء ورثة الأنبياء — لأعجب كل العجب ممن يقفون على تاريخ الإسلام وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام وممن يعلمونها في المدارس ، ثم يَغفُلون عن قضية من أهم قضايا التاريخ وأشدها ارتباطاً بعلم التوحيد وتأثيراً في تهذيب النشء

الإسلامى بل الإنسانى الحديث ، وإنشائه صحيح العقل ، سليم الفطرة ، بعيداً عن كل لوثة وثنية أو جاهلية

إن كل من أحاط بالسيرة النبوية وسيرة الصدر الأول للاسلام خُبرا أنكر أشد الإنكار ما أحدث الناس من البدع والجهالات والسخف والخرافات . وإنى مورد طرفاً يسيراً من سيرة الصحب الكرام ولا سيما الخلفاء الراشدين الذين من تمسك بسنتهم نجا ، ومن شذ عنها شذ فى النار ، لتكون لنا مناراً كمنار الطريق

بقى النبي - بأبى هو وأمى (ص) - قبل الدفن ثلاثة أيام والنزاع قائم بين الصحب الكرام على أمر الخلافة حتى بايعوا أبا بكر (رض) ولم يسألوا النبى (ص) عمن هو الأحق بها من بعده . وكانت وقعة الجمل بين أم المؤمنين وابن عمه أبى السبطين الشهيدين ، وسفكت دماء عزيزة عليه (ص) ولم يستفتوه قبل القتال ولا بعده وهو دفين فى بيت عائشة بين سمعهم وبصرهم . وجرت وقائع صفين بين على ومعاوية ، وكانت أعظم هولاً وأشد فتكاً ، ولم ينقل أن أحداً منهم استنجد بالنبي أو استغاث به ، أو سأله عن حكم هذه الحرب أو التى قبلها ، كما أنهم لم يسألوا شهداء أُحُد عليهم الرضوان شيئاً من ذلك وهم سادة الشهداء . وجمع القرآن فى عهد الصديق ، ووقع الخلاف أولاً فى جمعه ، ولم يستفتوه فى ذلك ، وكانوا يسألون النبى (ص) عن كل ما يعرض لهم من الأمور فصار يسأل بعضهم بعضاً ، ولم يجيئوا فيسألوه فى قبره (ص) وقال عمر : اللهم كنا إذا أجدبنا نستسق بنبيك محمد (ص) فتسقينا؛ والآن نستسق بعمه العباس ، فطلبوا الدعاء من عمه ولم يطلبوه منه كما كانوا يفعلون فى حياته بينهم . وقال عمر : ثلاث مسائل وددت لو أنى سألت رسول الله (ص) عنها ، ولم يسأله عنها بعد وفاته . وكانوا يضربون أكباد الإبل من الشام إلى المدينة ليسألوا عائشة عن حديث سمعته من النبى (ص) فكانت بين بيتهم ولم يسألوه وهو فى بيتها . ومضت القرون الثلاثة المفضلة وكل طبقة كانت تسأل من فوقها وتستفتيهم ، ولم يسألوا سيد الأنبياء ولا سادة الشهداء الأحياء عند ربهم (شهداء أحد) عن شيء

هذه هى أعمال الصحابة (رض) حينما هاجتهم الخطوب ، واستعرت بينهم نيران الحروب ، ووقعت لهم مناظرات كالمناظرة التى جرت بين الشيخين فى قتال مانعى الزكاة ، وكالخلاف الذى وقع فى إرسال جيش أسامة بن زيد الذى عقد لواءه النبي (ص) ليسير إلى بعض جهات الشام ، ولم يسألوا النبي (ص) عن شيء من ذلك أحوج ما كانوا إلى سؤاله ، وأحرص ما كانوا على العمل بمقاله ، وكان (ص) هو الذى يقسم بينهم الأعطيات والمغانم ، ويكون فيهم فى الغزوات ويرسل منهم السرايا ، ولم يقع شيء من ذلك له بعد وفاته .

وجملة القول : أن النبي (ص) كان مرجعهم فى الدين والدنيا فى حياته ، فصاروا يرجعون إلى ما عرفوا من سنته بعد وفاته ، وكل هذا معلوم من الدين والتاريخ بالضرورة ، ومن العقل والحس والوجدان بالبداهة ؛ ولكن مدرسى تاريخ المسلمين فى الأمصار الإسلامية قد قصروا فيما يجب عليهم من البيان ، وفى عدم الجمع بين حوادث التاريخ ومسائل الدين ؛ والكتب الكلامية المذهبية المتداولة لم تبن العقائد فيها على قواعد الأدلة ، ووصف ما كان عليه فى القرون المفضلة أهل هذه الملة

وأنا قد أوردت فى مقالى هذا شذرات من أعمال الصحب الكرام مقتبسة من هدى النبى الأمين ووحيه ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها كما قال مالك إمام دار الهجرة (رض)

فإلى رجال الدين والتاريخ والعلم الصحيح أوجه مقالى هذا راجياً أن يقرنوا العقائد الدينية بالشواهد التاريخية ، رحمة بهذه الأمة ، وليكون علم العقائد لدى الطلاب كسائر العلوم التى يطبق فيها العلم على العمل ، لكيلا تضيع الثمرة المطلوبة من دروس العقائد والتاريخ التى يقضى الطالب فى دراستها زمناً غير قليل ، والله هو الموفق والمعين

(دمشق) محمد بهجة البيطار

مطبعة المعارف ومكتبتاها بمصر والاسكندرية

تقدم أحدث مؤلفات الأستاذ

محمد عطية الابراشى

أروع القصص

كتاب يحتوى على مجموعة مختارة من قصص هى صور من الحياة الانسانية . الثمن ٦ قروش صاغ

قصص فى البطولة والوطنية

كتاب يبين للقراء كيف تكون البطولة والتضحية فى سبيل الوطن ، ويبث فى نفوسهم الشجاعة كى يفكروا دائماً فى رفع راية الوطن . الثمن ٦ قروش صاغ